المحاضرة الثالثة: الفكر اللساني في التراث العربي

تمهيد: التراث العربي

إن الإطلالة على الفكر، أو التفكير اللساني في تراثنا العربي يقتضي منا قراءته، أو قراءة جوانب منه ومساءلته ومعرفة إلى أي مدى يمكن أن يكون نظرية أو نظريات لسانية أو نحوية أو بلاغية، أو صرفية أو صوتية أو دلالية معجمية.

وعليه؛ سنخوض غمار هذا الدرس رغبة في الكشف، أو إماطة اللثام عن قضايا ومظاهر فكرنا اللساني في تراثنا العربي، ومن أهم القضايا المطروحة على بساط الدرس:

–اللغة الموصوفة، وأزمة المنهج، فاللغة الموصوفة هي الموضوع، وهي اللغة العربية واللغة الواصفة، هي اللغة العلمية

يعتبر الفاسي الفهري اللغة العربية، موضوع الدرس اللغوي العربي القديم، وهي تتمثل اللغة المعينة، وهي واحدة من اللغة الطبيعية، وهي ظاهرة اجتماعية تتمثل في اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن الكريم وجاءت به السنة النبوية الشريفة، وبه نظم العرب كلامهم شعرا ونثرا .

والتراث اللغوي في رأي الفاسي الفهري إما معطيات اللغة الموصوفة، وإما مفاهيم وصفية، أو أصولا وتأملات، وعلى هذا، نضطر إلى التفريق بين النسق الفكري، وبين المعطيات ودراسة هذه المعطيات الموجودة في هذا التراث، يمكن أن تستعمل لبناء نحو اللغة العربية القديمة، ودراسية النسق المفاهيمي النحوي/ اللغوي، يهدف إلى التأريخ للفكر أو (الإبستيمولوجيا).

إن من يجيل نظره في تراثنا العربي الضخم والعظيم يجد أن الدرس اللغوي العربي القديم يتمثل في عدة مجالات منها، الدرس الصوتي، والدرس الصرفي، والدرس النحوي والدرس الدلالي والمعجمي للغة العربية، وكما أنه يعد درسا مؤسسا ومؤصلا لا سيما لدى فطاحل اللغة العربية، أمثال الفراهيدي، وسيبويه، و الزمخشري، والجرجاني وابن جني، وغيرهم.

و الفارق الجوهري بين الدرس اللغوي العربي القديم والدرس اللساني الغربي الحديث هو اصطباغ الدرس اللغوي العربي القديم بالنزعة الإنسانية، في حين أنه تهيمن النزعة العلمية على الآخر –الدرس اللساني الغربي، وفصل بين مستويات اللغة في دراسة اللغة الطبيعية.

مجالات الدرس اللغوي في التراث العربي:

في التراث اللغوي العربي ذاته نجد أصنافا من المصنفات العلمية، منها، الركن الأول، الذي يكمن في التراث اللغوي.

أ-مصنفات النحو بمفهومه الشامل لقواعد التركيب، وبنية الكلمات، وخصائص الحروف كما حدده سيبويه في كتابه.

ب-أصول النحو: وهو ميدان يمثل تجاوز التفكير في أنظمة اللغة إلى البحث عن مؤسساتها المبدئية، فكان في التراث اللغوي بمثابة البحث الإبستيمولوجي في علم اللغة، وقد كان رواده واعين بدرجة التنظير المجرد الذي عليه علمهم، ومن أهم مصنفاتهم، الخصائص لابن جني، ولمع الأدلة للأنباري، والإيضاح للزجاجي، و الصاحبي لابن فارس.

ج-الموروث البلاغي: وهو من أغزر المواريث اللغوية في الفكر اللساني العربي، تناول البلاغيون القضايا اللغوية تنظيرا وكذلك القضايا الفنية وكذلك القضايا النقدية.

د-المعاجم اللغوية العربية التي دونت فيها اللغة والركن الثاني: يكمن في التراث لأدبي بمفهومه الواسع، ومن أمثلة ذلك مصنفات الجاحظ، ومصنفات أبي حيان التوحيدي، وغيرهما.

-أما الركن الثالث فيتمثل في التراث الديني، وتنوع مصادره التي تناولت القضية اللغوية، وهي كالتالي:

أ- **كتب أصول الفقه:** وقد عالج الأصوليون القضايا اللغوية في سنّهم لقواعد التشريع، واستنباط الأحكام ومن أعلامهم: ابن حزم الأندلسي "الإحكام في أصول الأحكام" وهو على طريقة الظاهرية، وعلى الطريقة الأشعرية الغزالي أبو حامد في "المستصفى".

ب- **التفاسير:** يستطرد المفسرون عادة في تقديرات لغوية عامة، وفي تحاليل نظرية متنوعة عندما يواجهون تفسير بعض الآيات المتصلة بنشأة الكلام، أو بخلق الإنسان ومن أمثلة ذلك، الزمخشري في كشافه، وهو يمثل نموذج التفسير الاعتزالي وكذلك تفسير الطبري الذي يعد قمة التفكير بالمأثور وبداية أدب التفكير القرآني، فكان يمثل المذهب السني المناهض لأهل الرأي المعتزلين وهم يقارعون الأشاعرة ويصفونهم بالجبرية والحشوية والمبطلة.

ج- **علم الكلام:** وهو نقطة تقاطع الثقافة الإسلامية عقيدة وتشريعا ومنطقا، وفي مفترقه ازدهرت مناهج الجدل وأدب المناظرات. ومنطلقه وغايته كانتا تساؤلا عن قضايا عقائدية ومحورها الظاهرة اللغوية أولا، وبالذات في نشأتها ومنشئها واتصاف الخالق والمخلوق بها، ومن أشهر علمائه القاضي عبد الجبار "المغني في أبواب التوحيد والعدل".

-والركن التراثي الرابع: يتمثل في التراث الفلسفي بأوجهه المختلفة من طبيعيات وإلهيات ومنطق، وقد مثلت القضية اللغوية ركنا قارا في تفكير الفلاسفة، لا سيما في أبواب المنطق، من المداخل والمقولات، إلى القياس والبرهان حتى الخطابة والشعر. ومن أشهر الأعلام" ابن سينا (موسوعته)، الفارابي، ابن رشد، الغزالي (معيار العلم).

-الركن الخامس: يمثل علما مبتكرا، هو علم العمران أو علم الاجتماع الإنساني، ومن رواده ابن خلدون.